محمد الانصاري

ابن سعيد المغربي
(٦١٠ ـ ٦٨٥ هـ / ١٢١٣ ـ ١٢٨٥م)
حياته وآثاره

PUL CHECKED

ليفانية تعهد بتبنته

اطروحة مقدمة للدائرة العربية
بالجامعة الاميركية ببيروت
لنيل شهادة الماجستير

مايو (ايار)
١٩٦٦

شملت هذه الدراسة، التي حاولت ان تلمّ بالجوانب المختلفة في حياة ابن سعيد وآثاره، مقدمة عن عصره وبيئته، وفصولا ستة تناولت على التوالي: تاريخ حياته، شخصيته وثقافته العامة، علمه ومصنفاته، جهوده الجغرافية، آراءه النقدية، نتاجه الشعري.

في المقدمة، كان الالتفات بشيء من الاسهاب الى حياة المجتمع والثقافة في الاندلس خلال النصف الاول من القرن السابع الهجري، وذلك بسبب التفاعل القوي والصلة الوثيقة بين الظاهرات الاجتماعية والثقافية وبين جوانب شخصية ابن سعيد الخصبة التي يمكن للدارس ان يلمس حضورها بشكل او بآخر فيما يتعلق بالنشاط العلمي التصنيفي، او النتاج الشعري، او الحياة الاجتماعية الجادة واللاهية، او ظاهرة الاسفار والرحلات على حد سواء. وثمة سبب آخر دعا الى الاهتمام بتلك المقدمة وهو عدم توفر ابحاث اجتماعية او ثقافية عن تلك الحقبة في الاندلس ـ بالذات ـ يمكن الاحالة اليها، فكان لابد لهذه الدراسة ان تعتني بهذا الشأن ـ قدر الامكان ـ حتى لاتبقى دراسة ابن سعيد معلقة دون اطارها الحضاري العام. وقد جاءت الاحكام والتقويمات في ذلك البحث التمهيدي حصيلة استقراء لمصادر الحقبة الاولية، بالدرجة الاولى، دون توكؤ على استنتاجات جاهزة لدى معاصرين محدثين لاشيء الا لندرة وجود ابحاث علمية موثوقة، كما تقدم.

بعد تلك المقدمة التي تناولت بيئات ابن سعيد المختلفة وتدرجت معها من الاعم الى الاخص، جاء الفصل الاول ليرسم الخطوط الرئيسية في تاريخ حياة ابن سعيد الحافلة بالحركة والاحداث، بصورة تراعي التفاصيل من حيث تأكيدها للخط العام، وتحاول قدر الامكان ـ من ناحية اخرى ـ الا تطغى الجزئيات على التناسب بين المراحل العامة.

ثم جاء الحديث عن شخصية ابن سعيد التي حاولت اعادة رسمها من ركام الاخبار والحكايات والنصوص، ولقد تمكنت — وارجو ان يكون ذلك بنجاح — من استخراج الخاصة المميزة لشخصيته او الخيط الذي يربط بين جوانب تلك الحياة المتنوعة، فوجدت انه التوسط او الاعتدال القائم على اساس من هدوء العاطفة وغلبة التعقل والميل الى كثير من اللطف والتسامح . وقد عولجت في هذا الفصل علاقة التأثر والتأثير بين شخصية ابن سعيد وبين ثقافته العامة، وتم الالتفات الى نواحي هذه الثقافة من حيث علاقتها بميول ابن سعيد النفسية وحياته الشخصية .

وبعد ان تعرفنا الى ابن سعيد في بيئاته المتعددة ومعالم حياته الحافلة وكشفنا عن مكونات شخصيته وميزاتها وما يرتبط بذلك من نزعات وميول، كان لابد من الالتفات الى انواع نتاجه في مختلف الميادين . وهكذا جاء الفصل الثالث ليهتم — تفصيلا — بالجوانب المختلفة في حياة ابن سعيد العلمية : فبحث حدود علمه واتجاهاته، وأرخ لشيوخه، ثم عرض لمصنفاته مصنفا مصنفا في اطار من التقسيم النوعي، وبعد ذلك المع لموقفه — مصنفا — من تيار المذاهب التصنيفية في الاندلس وعدد مزايا منهجه التصنيفي، ثم حدد اهمية جهوده، مع اشارة الى مكانته وشهرته كما تتمثلان في نظرة القدماء والمعاصرين اليه .

وفي هذه المرحلة من البحث تهيأ المجال لتناول فروع انتاجه كلا على حده . وهذا ما فعلته الفصول الثلاثة الاخيرة المهتمة بجغرافيته ونقده وشعره على التوالي .

والواقع ان الفصل الخاص بجغرافية ابن سعيد جاء عرضا عاما لجهده في حقل التأليف الجغرافي والرحلات بقصد اكمال الصورة والتنبيه الى مكانة ابن سعيد في هذا الحقل، فلم تجر محاولة لتقييم مؤلفاته او نقدها، اولا لتقدم الاطلاع على اهم مؤلف جغرافي له، وثانيا — وهذا هو الاهم — لان ذلك من شأن علماء الجغرافية، فهم وحدهم الذين يمكنهم ان ينقدوا مؤلفاته ويربطوها بالتيارات والمدارس الجغرافية السابقة واللاحقة . ومن نافلة القول ان اشير الى ان عملا كهذا خارج عن مقدور هذه الدراسة ونطاقها ومسؤوليتها .

وبالمقابل، اعطيت عناية خاصة لآراء ابن سعيد النقدية ونتاجه الشعري. وثمة سبب هام للاعتناء بنقد ابن سعيد : ان هذا النقد قد لايمثل جدة وطرافه في حد ذاته ولكن اهميته تكمن في انه تحكم في اختيار ابن سعيد للنصوص المختارة من الشعر والنثر، تلك النصوص التي تعتبر اليوم وثائق هامة في دراسة الشعر الاندلسي والشعر المصري. ونحن اذ نعتمد عليها اليوم، نعن حسن التنبه ان نكون مدركين للمقاييس التي تحكمت في اختيارها من بين النتاج الادبي كله في تلك العصور.

وقد أدت طبيعة البحث والمادة الى ان يجيء فصل الشعر في النهاية، لان شعر ابن سعيد كان متأثرا أبعد التأثر بمفاهيمه النقدية من ناحية، وبثقافته التاريخية والادبية والجغرافية من ناحية اخرى، فكان لابد من التحدث عنه بعد جلاء تلك الجوانب كلها. الا ان الاهتمام بهذا التأثر لايعني ان شعره قد درس من الخارج، فقد حاولت ـ جهد الطاقة ـ ان اتتبع الظواهر النفسية والفنية فيه، وكنت أحرص دائما على تبين "الجانب الاقوى" في قصائده، بمعنى انني حاولت استخراج اقصى مايسمح لي به الرصد الموصول منها. واذا لم تكن نتيجة هذه الدراسة عن شعره في صالح مكانته الشعرية، فانها ـ على الاقل ـ كانت اول دراسة مستقصية حول ماوصلنا من هذا الشعر، وانها ـ بدراستها لشعر ابن سعيد ـ قد اسهمت بنصيب متواضع في محاولة درس الشعر الاندلسي خلال عصوره الاخيرة، فابن سعيد ـ كما رأينا ـ يعتبر احد شعراء تلك الفترة وشعره نموذج هام من نماذج شعرها.

واني لارجو ان تكون هذه الدراسة قد قاربت حدود النجاح في التعريف بعلي بن موسى بن سعيد الغرناطي الاندلسي صاحب التواليف المشهورة والجهود المشكورة :
هذا الرجل الذي ظهر في عصر غلب فيه التصنيف والنقل والرواية على الابتداع والتأليف والخلق، فبذل جهدا مشكورا في سبيل تسجيل نتاج المبدعين وحفظه لاجيال مقبلة ماكان بامكانها ان نقدر ذلك النتاج ـ خاصة ذلك القسم الاندلسي المتأخر منه ـ لولا جهوده واخلاصه. ولقد كان الرجل رجل اعتدال وتوسط فجاءت حياته وجاء نتاجه

في حدود التوسط والاعتدال . والذي يشوق في حياته الحافلة هو ارتباط هذه الحياة بأحداث العالم الاسلامي في القرن السابع ، وبدوله ورجالاته ارتباطا وثيقا بحيث يتمكن المرء من خلال دراسته لابن سعيد ان يدرك الميزات العامة التي يتصف بها العصر .

واذا جاز لي ان اسجل ميزة بسيطة لهذه الدراسة فهي انها حاولت ان تعيد خلق ابن سعيد الانسان والمصنف الناقد والشاعر من المصادر والنصوص الاصلية دون اعتماد على ابحاث جاهزة . اذ لم تسبق بتحقيق شامل عن حياته ولا بدراسات عن شخصيته او منهجه العلمي او آرائه النقدية او نتاجه الشعري .

ويحضرني في ختام الخاتمة ما قاله ابو الحسن ـ عليه الرحمة ـ في مقدمة "مشرقه" :

"... وقطعت مدة طويلة في ترتيبه انسج والحم واقدم واحجم ، الى ان اصبت الهدف [1] ، واتبعت ـ والحمد لله ـ ما سلف بما خلف ، والطل ينزل امام الوبل ، والفضل للوبل لا للطل . على اني معترف بالاتباع ، غير مدع للابتداع ، منشد قول فاتح باب التأدب :

لئن سبقت قبلي فهاج لي البكا بكاها لقلت الفضل للمتقدم ".